صورة فرنسا في رحلة الصفار

الدكتور عبد الرفيق بنيس
دكتوراه في الأدب العربي
جامعة عبد المالك السعدي، تطوان
أستاذ اللغة العربية والتواصل
باحث من طنجة
المغرب

الملخص:

أسهمت الرحلة إسهاما كبيرا في تنمية المعرفة الإنسانية، فهي من أبرز المصادر التاريخية والاجتماعية، فضلا عن دورها في تعزيز التواصل والتفاعل بين الأمم والشعوب، وقد أتاحت "الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية" للكاتب محمد الصفار، فرصةً لمعاينة مظاهر الحياة الفرنسية في أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية والصناعية والعلمية وغيرها، في محاولة واعية لاكتشاف الذات من خلال الآخر، وإبراز أسباب تقدمه ومظاهر تفوقه، مشيدًا بما لمسه من دقة التنظيم وحسن التدبير وجودة التخطيط. وبذلك غدت هذه الرحلة وثيقةً أدبية وحضارية وتجربةً معرفية، تقوم على رؤية مقارنة تجمع بين الانفتاح على الآخر والإفادة من منجزاته، وبين صون الخصوصية الثقافية للمغرب والحفاظ على مقومات هويته الراسخة.

يكشف وعي الرحالة بطبيعة رحلته عن إدراك عميقٍ لطبيعة العلاقة القائمة بين الذات والآخر، لذلك لم يكتف الصفار بصياغة تقريرٍ جافٍّ عن مجريات المهمة، بل غدت رحلته فعلَ تأمّلٍ وتفسير، برزت فيه الذات في حوارٍ مع الآخر، وتحول الاختلاف إلى جسر يُفضي إلى التواصل والتلاقحِ الثقافي والمعرفي، وبذلك تجاوزت الرحلة حدود الوثيقة التاريخية والجغرافية لتغدو تجربةً إبداعية تتداخل فيها الملاحظة الواقعية مع عمق التأمل الذاتي، وتمتزج فيها المعرفة بالمتعة السردية، وتتقاطع فيها صورة العالم الخارجي مع انفعالات الرحالة ورؤيته الخاصة، مما يفتح أمام القارئ أفقًا لفهم الذات والآخر، واستيعاب اختلاف الثقافات، واستثمار المشترك الإنساني في بناء جسور التواصل، لتبادل الخبرات وتحقيق التكامل، بما يجعل الرحلة تجربةً جماليةً ومعرفيةً وحضاريةً تتجاوز حدود المكان لتلامس سؤال الإنسان في علاقته بالعالم.

Summary:

The journey made a significant contribution to the advancement of human knowledge, as it is considered one of the most prominent historical and social sources, in addition to its role in fostering communication and interaction among nations and peoples. The book « Ar-Rihla at-Titwāniyya ilā ad-Diyār al-Faransiyya »(The Journey from Tetouan to France), written by author Mohammed Al-Saffar provided an opportunity to observe the various aspects of French life in its social, economic, urban, military, industrial, and scientific dimensions, among others. It represented a conscious attempt to discover the self through the other, to highlight the reasons for France's progress and the features of its advancement, while commending the precision of organization, wise management, and efficient planning that he observed. Therefore, the journey became a literary and civilizational document as well as a cognitive experience, based on a comparative vision that combines openness to the other and learning from its achievements while preserving Morocco's cultural distinctiveness and core values of its Identity

Al-Saffar's awareness of the nature of his journey reveals a deep understanding of the nature of the relationship between the self and the other. Therefore, Al-Saffar did not confine himself to providing a simple report on the course of the mission; rather, his journey became an act of reflection and interpretation, in which the self-emerged in dialogue with the Other, while difference was transformed into a bridge leading to communication and cultural and intellectual exchange. Therefore, the journey transcended the boundaries of a historical and geographical document to become a creative experience in which realistic observation intertwines with profound self-reflection, and where knowledge blends with narrative pleasure, and the image of the external world intersects with the traveller's emotions and personal perspective. This opens up new horizons for the reader to understand both the self and the other, appreciating cultural differences, and drawing upon the shared human experience to build bridges of communication, exchange experiences, and achieve integration. Therefore, making the journey becomes an aesthetically, intellectually, and culturally enriching experience that transcends the geographical boundaries of place to engage with the fundamental question of the human being in relation to the world.

مقدمة:

يُعَدّ أدب الرحلة من أبرز الأجناس الأدبية التي حظيت بمكانة متميزة في التراث العربي، لما ينطوي عليه من خصائص فنية تجمع بين **متعة السرد، ودقة الوصف، وثراء التجربة الإنسانية**. فهو يمثل وثيقة أدبية وحضارية تقوم على المشاهدة والوصف والتأمل، وتعبر عن المشاعر والأفكار والمواقف التي يعيشها الرحالة خلال رحلته، ويضطلع بدور مهم في حفظ جانب مهم من الذاكرة التاريخية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات. كما يسهم في تشكيل صورة عن الآخر، وتمثيل ملامحه الثقافية والحضارية، بما يكشف عن طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، وما يطبعها من تصورات ومواقف ورؤى. يطلق العرب أدب الرحلة على"كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم الذين يصفون فيها البلدان والأقوام، يذكرون فيها أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه"[1]، وقد ارتبطت الرحلة عندهم بدوافع متباينة، وانقسمت إلى صنفين: رحلة سفارية تهدف إلى طلب المعرفة والاكتشاف، ورحلة دينية حجازية بغرض أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، ومهما اختلفت دوافع الرحلة، فقد أسهمت إسهاما كبيرا في تنمية المعرفة الإنسانية، خاصة وأن كتب الرحلات تعد من أبرز المصادر التاريخية والاجتماعية، لما تتضمنه من مشاهد ومعلومات ينقلها الرحالة، فضلا عن دورها في تعزيز التواصل والتفاعل بين الأمم والشعوب.

تمثل الرحلة جسرا للتواصل مع الآخر، سواء أكان ينتمي إلى الحضارة نفسها، أم إلى حضارة أخرى، وقد أصبحت وثيقة تاريخية وأدبية قائمة على السرد والمشاهدة والوصف الدقيق لأحوال المجتمع وسكانه، كما أسهمت في تقديم صورة عن العالم الآخر الذي ينتقل إليه الرحالة، بهدف فهمه وتعزيز جسور التواصل والتلاقي الحضاري معه، لذلك أولى العرب منذ القدم أدب الرحلة عناية خاصة، واستمر ذلك حاضرا ومتجددا عبر الزمن، حتى أصبح من أهم الفنون التي برعوا فيها، ومن أشهر الرحلات القديمة نذكر: رحلة ابن فضلان، ورحلة التاجر سليمان السيرافي إلى المحيط الهندي، ورحلة سلام الترجمان إلى بلاد القوقاز، ورحلة ابن جبير الأندلسي.

شهد المغرب عبر تاريخه العريق عددا مهما من الرحلات، لعل أشهرها رحلة ابن بطوطة "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وهي رحلة استكشافية واسعة، استغرقت ما يقارب ثلاثين عاما، قام بها الرحالة الطنجي أبو عبد الله محمد بن بطوطة في القرن الرابع عشر من مدينة طنجة، زار خلالها معظم بلدان العالم الإسلامي وقارات آسيا وإفريقيا وأوروبا، مسجلا مشاهداته، وواصفا عادات وأحوال شعوبها.

وتعد "الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية" للكاتب محمد بن عبدالله الصفار التي قام بها في إطار اللقاءات الدبلوماسية بين المغرب وفرنسا سنة 1845م، من أبرز الرحلات السفارية المغربية في العصر الحديث، **لما سجلته من وصف دقيق لأحوال المجتمع الفرنسي ومظاهر حضارته ومؤسساته**، ويرجح أن يكون السفير عبد القادر أشعاش الذي بعثه السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام في إطار مهمة دبلوماسية إلى فرنسا، والذي تشرف بتقديم أوراق اعتماده إلى اللك الفرنسي في رحاب قصر التويليري Palais des Tuileries يوم 30 دجنبر 1845م، هو الذي طلب من كاتبه الفقيه الصفار بتوثيق الرحلة، لتقديم تقرير عنها إلى السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام العلوي، حيث سجل الرحالة الصفار مشاهداته وملاحظاته بعناية، وعند عودته إلى المغرب دون تفاصيل رحلته.

إذا كانت الرحلة مقترنة في الوعي الشعبي بفعل الارتحال، سواء تجلت في صورة واقعية أو متخيلة عبر الزمان والمكان، وكانت في جوهرها سعيا دؤوبا إلى الاكتشاف والتنقيب، لتحسين ظروف العيش أو لطلب العلم والمعرفة، فقد اتخذت رحلة الصفار بُعدًا حضاريًا مميزًا، حيث تقوم على انتقال من فضاء مألوف، هو مدينة تطوان بما تحمله من خصوصية ثقافية، إلى فضاء مغاير يتمثل في باريس عاصمة فرنسا بما تزخر به من تميز حضاري وثقافي، لتغدو بذلك رحلته انفتاحا على الآخر، وسعيًا إلى فهمه واستكشاف ملامح تميّزه.

معمار الرحلة و**مضامينها**:

[1] أدب الرحلات، د.حسين محمد فهيم، سلسلة عالم المعرفة، عدد:138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1989م، ص:17

استهل الصفار رحلته بمقدمة تناول فيها طبيعة الرحلة وأسباب القيام بها، ثم أعقبها بأربعة فصول، خُصّص كل منها لمعالجة جانب محدد من جوانب الرحلة، حيث هيمن عليها الوصف والإخبار والمقارنة والتعليق، في محاولة لنقل المشاهد الحسية إلى المتلقي، وسرد ما يرصده الرحالة من ملامح البيئة والعمران، والعادات الاجتماعية والاقتصادية، فضلًا عن تتبعه لمظاهر التطور العلمي والتقني في فرنسا. وأنهى الصفار رحلته بخاتمة، سجلّ فيها مشاهداته وانطباعاته، وكشف عن بعض المرتكزات المالية والإدارية، وعن الأساليب التي انتظم وفقها النشاط الاقتصادي في فرنسا، وفي الأخير أثبت تاريخ الفراغ من كتابة رحلته، وهو 11 رمضان 1262هـ.

ولتوضيح البناء العام لهذه الرحلة، والكشف عن أبرز خصائصها، سنقف عند مضامين فصولها، من خلال تقديم موجز لأهم القضايا والأفكار التي تناولها الصفار، وما تضمنته رحلته من ملاحظات وتأملات أضاءت جوانبها الفكرية والوصفية، وأبرزت خصوصية هذه التجربة الرحلية وثراءها:

-مقدمة الرحلة:

استهل الصفار رحلته بالحمدلة والصلاة والسلام على خير البرية، ثم ذكر أفضال السلطان عبدالرحمان بن هشام العلوي، مبرزا حرصه على انتظام شؤون الخاصة والعامة، واقتداءه في تدبير أمور الرعية بسنة جده الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ، ثم انتقل إلى الحديث عن اختيار أفراد البعثة الموفدة إلى فرنسا، والتي كان من بين أعضائها القائد عبدالقادر أشعاش، فضلا عن صاحب الرحلة الكاتب محمد الصفار الذي أتيحت له فرصة معاينة بلاد الغرب"فرنسا" عن قرب، والوقوف على أحوالها، ونقل ما استرعى انتباهه من مشاهدات وملاحظات. لذلك عزم على تدوين رحلته، وتسجيل ما عاينه وسمعه خلال سفره، وما اتصل بذلك من وقائع ومشاهد، وقد حرص في مستهل رحلته على توثيق تفاصيلها، فذكر تاريخ مغادرتهم مدينة تطوان، يوم السبت 13 ذي الحجة 1261هـ، الموافق لـ 13 دجنبر 1845م، ثم وصف رحلتهم بحرا على متن الباخرة إلى أن بلغوا مرسيليا، قبل أن ينتقل إلى تصوير مظاهر الحفاوة التي حظيت بها البعثةَ المغربية عند وصولها إلى فرنسا، وما أبداه الفرنسيون من حسن الاستقبال وكرم الاحتفاء بها.

الفصل الأول: في سفرنا من البر من مرسيليا لباريس

أفاض الرحالة الصفار في وصف مدينة مرسيليا حيث استهل بتصوير مرساها وما تضجّ به من حركة تجارية واسعة، مشيرا إلى اشتمالها على ما يزيد على ألفي مركب مخصّص للسلع والتجارة، وإلى اجتماع التجار فيها من مختلف الأقاليم، حتى غدت فضاءً تتجمع فيه أصناف البضائع والصنائع التي توجد في فرنسا. ولم يقف وصفه عند الميناء وحركته التجارية، بل امتدّ إلى عمران المدينة ومظاهرها الحضارية، فوصف علوّ مبانيها، واتساع أسواقها، وكثرة محلاتها التجارية، فضلًا عن شوارعها الفسيحة التي تزيّنها الأشجار، في مشهد يجمع بين الحيوية التجارية وجمال العمران. ومن مرسيليا، انتقل الرحالة إلى وصف مسيره نحو باريس، مارًّا بعدد من المدن الفرنسية، وقد أولى وسائل النقل الحديثة عناية لافتة، فخصّ طرق السكك الحديدية بوصف دقيق، موضحًا كيفية اشتغالها وآلية سيرها، مستندًا في ذلك إلى تجربته الشخصية في التنقل عبرها، بما جعل وصفه أقرب إلى المعاينة المباشرة منه إلى النقل المجرد.

خلال رحلته، مرَّ الرحالة الصفار بمدينة إكس، ثم بمدينة أفينيون العريقة، التي يمرّ بمحاذاتها نهر الرون، كما عرّج على مدينة فالنس، حيث وصف ما تزخر به هذه المدن والبلدات من آثار ومعالم عمرانية تشهد على عراقتها. ثم حطّ الرحال بمدينة ليون، فاستوقفته أسوارها الحصينة، وما كانت تتميز به من ازدهار في صناعة الحرير، وكثرة مراكبها، واتساع أسواقها، وتعدد قناطرها وطرقها الحديدية، فضلًا عن نشاطها الصناعي والتجاري. ولم يقتصر اهتمام الرحالة على وصف العمران والصناعة ووسائل النقل، بل تجاوز ذلك إلى رصد بعض مظاهر التقدم العلمي والتقني الأخرى، ومن ذلك انبهاره بتقنية تحلية ماء البحر وجعله عذبًا بواسطة عملية التقطير، ووصفه لاستعراض العساكر وما أبدوه من مهارة في استعمال المدافع على متن أحد المراكب، مبرزًا دقة التنظيم والانضباط الذي يحكم أداءهم، فكان كل فرد يؤدي عمله في انسجام تام وحزم بالغ. وخلص الرحالة إلى أن ما شاهده من تنظيم لم يكن وليد الصدفة، وإنما ثمرة عناية دقيقة، وترتيب محكم، واستعداد حسن، وحرص على وضع كل شيء في موضعه المناسب. وهكذا تحوّل وصف الصفار للمدن والصناعة والعمران وغيرها إلى تأمل في أسباب القوة والتقدم الغربي.

الفصل الثاني: في ذكر باريس

تحدّث الرحالة في هذا الفصل عمّا عاينه في باريس، فاستهلّ وصفه ببيان سعتها ومناخها، ثم انتقل إلى رصد عادات الفرنسيين وأحوالهم، وما تزخر به المدينة من معالم عمرانية وأسوار وقلاع، وما تضمه من عتاد وأسلحة. كما وصف قناطرها وأسواقها ومحلاتها التجارية، مع الإشارة إلى الفرنك الفرنسي المتداول آنذاك، كما قارن بين هندسة المنازل الفرنسية ونظيراتها المغربية، مبرزًا ما تتميز به الأولى من نوافذ مشرقة تطل على الشوارع والأسواق، ووجود مواقد رخامية في البيوت توقد بالحطب، فضلًا عن اشتمالها على مختلف أدوات الكتابة. ثم أبدى إعجابه بالحمّام الفرنسي، مقارنًا بينه وبين الحمّام المغربي. وانتقل بعد ذلك إلى وصف المنتزهات، وفي مقدمتها الشانزيليزيه (Champs-Élysées) القريب من نهر السين، وما يحيط به من أشجار ومناظر بديعة ومقاهي ودور للفرجة، كما وصف حدائق قصر التويلريPalais des Tuileries ، وما تزخر به جنانه من نباتات نادرة، وحيوانات برية وبحرية، وطيور متنوعة، وأحجار ومعادن نفيسة. كما أولى الرحالة عناية خاصة بـ «التياترو"، أو المسرح، واعتبره من أبرز فضاءات الفرجة والتسلية في المجتمع الفرنسي، وأسهب في وصفه، متوقفا عند طرائق أداء الممثلين، وأحوال المتفرجين وكيفية جلوسهم، وما يحيط بالعروض من ديكور ومشاهد، كما أشار إلى بعض الموضوعات التي كانت تعرض على خشبة المسرح، مبرزا أثرها في تهذيب السلوك، وترسيخ القيم الأخلاقية.

توقّف الرحالة عند الصحافة الفرنسية، مبينًا دورها في نشر الأخبار الداخلية والخارجية ومتابعة مختلف القضايا والشؤون العامة، كما بين آليات عملها، مستعرضا أدوار القائمين على الصحف والمراسلين، موضحا ما شهدته من اتساع انتشارها ورواجها بين مختلف فئات المجتمع. ثم أبرز شغف الباريسيين بالعمل والسعي إلى الكسب، ولا سيما في مجالي التجارة والحرف، مشيرا إلى انتشار المعاملات البنكية، واتساع حضورها في المجتمع الفرنسي، فضلا عن الاهتمام بتدوين علم التجارة ودراسته. وختم وصفه بالإشارة إلى طباع الباريسيين، وما لاحظه فيهم من ذكاء وفطنة، ودقة في النظر.

الفصل الثالث: في عوائدهم في المأكل

خصّص الرحّالة هذا الفصل لرصد جانب من جوانب الحياة اليومية عند الفرنسيين، فتوقف عند عاداتهم في المأكل والمشرب، وما يحيط بها من آداب وتقاليد تكشف عن ميلهم إلى النظام والدقة وحسن التدبير. ولم يكتف بوصف ما يتناوله الناس من أطعمة وأشربة، بل رصد أيضا هيئة جلوسهم حول الموائد، وما يهيأ عليها من لوازم، فوصف المائدة الفرنسية وما يزيّنها من مناديل مرتبة، وزهور تضفي عليها مسحة من الجمال، إلى جانب ما يستخدمه الفرنسيون من أوانٍ وأدوات متنوعة في تناول أطعمتهم. كما أشار إلى ما يميز سلوكهم أثناء تناول الطعام من نظام وترتيب، مما يجعل الوجبة عندهم تتجاوز مجرد إشباع الحاجة إلى الطعام، لتغدو ممارسةً اجتماعيةً تحكمها قواعد دقيقة وذوق خاص.

انتقل الصفار إلى بيان تسلسل الأطعمة وتنوعها، فذكر ما يقدم منها تباعًا، وعرض نماذج من أصناف اللحوم والخضر والفواكه والحلويات، موضحًا ما تتميز به موائد الفرنسيين من تنوع في المكونات وغنى في الأصناف. كما تناول طرائق إعدادهم للطعام وطهيه، وما يعتمدونه من أساليب وتقنيات في الطبخ، تكسب الأطعمة مذاقها وخصائصها المميزة، كما وصف أشربتهم، ليكتمل بذلك وصف المائدة الفرنسية. وبعد ذلك انتقل إلى رصد ما يعرض في الأسواق من سلع ومواد غذائية، من خبز ولحوم وخضر وفواكه، وغيرها من المنتجات. ووصف حركة البيع والشراء في الأسواق، وعادات الناس في التسوق، وطرائق اختيار حاجاتهم واقتنائها، مشيدا بحسن التنظيم ودقة الترتيب، وما يسود من نظام ييسر المعاملات وينظم حركة البيع والشراء. ولإتمام صورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية، أورد الرحّالة بعض أسعار المنتجات والسلع المتداولة في الأسواق آنذاك، والتي لم تكن مجرد أرقام عابرة، بل هذه الأسعار تكتسي أهمية خاصة، إذ تسهم في تكوين صورة أوضح عن مستوى المعيشة، وقيمة المنتجات، وطبيعة الحياة الاقتصادية في المجتمع الفرنسي في تلك الفترة.

زاوج الصفار بين وصف المظاهر الاجتماعية والاقتصادية، فصوّر جانبًا من الحياة الفرنسية من خلال تفاصيل تبدو في ظاهرها بسيطة، كالمائدة والطعام والسوق والأسعار، لكنها تكشف في مجموعها عن جوانب أعمق من حياة المجتمع، وعادات أهله في الأكل والتسوق، وعن

درجة ما بلغوه من التنظيم والعناية بالتفاصيل. وبذلك يرتقي وصف الرحّالة من مجرد رصد للمشاهد إلى شهادة حية تكشف ملامح الحياة اليومية في المجتمع الفرنسي، بما تنطوي عليه من عادات، وحركة تجارية، ونظام دقيق يضبط مختلف تفاصيلها.

الفصل الرابع: في ذكر مكثنا في هذه المدينة

وصف الصفار إقامته بالشانزيليزيه بمدينة باريس، حيث انفتح أمامه أفق جديد من روعة العمران ودقة النظام، فقد حظي بلقاء الملك الفرنسي في قصره الفخم، واستقبلت بعثة السلطان عبد الرحمان بن هشام بحفاوة رسمية تليق بمقامها، وتوالت عليها مظاهر التكريم من كبار الدولة، كوزير المكلَّف بالخارجية، ووزير الوزراء. لمس الرحالة لدى الفرنسيين رقي المعاملة، وحسن الضيافة، واحترام القانون وإتقان العمل. واستوقفه ما شاهده في دار **الكتب السلطانية**، العامرة بأصناف المخطوطات والكتب المطبوعة بمختلف اللغات، إلى جانب التحف النفيسة والعملات التاريخية، حيث بدت له هذه المؤسسة شاهدًا على عناية الفرنسيين بالعلم، واعتزازهم بالكتاب، وصونهم للتراث والتاريخ.

وصف الصفار دعوة ملك فرنسا للبعثة المغربية لمشاهدة **الاستعراض العسكري**، حيث أبدى الرحالة إعجابه بما بلغته الجيوش من قوة وانضباط، وما زودت بها من عتاد ووسائل حديثة، وأعجب بدقة تنظيمها وحسن أدائها، فرأى أن سر قوتها يكمن في صرامة نظامها، والتزام أفرادها بالقوانين، وتفانيهم في أداء واجباتهم. وقد خلص إلى أن الانضباط أساس من أسس القوة، وسبيل إلى تحقيق التقدم. كما حظي الرحالة بزيارة القصر **الملكي Palais Royal** ، وأبدى استحسانه لما شاهده من أثاث وصور للملك الفرنسي وأفراد أسرته، وما يتصل بحياته وأحواله، ثم انتقل إلى **قصر اللوفر Le Louvre** ، حيث وجد نفسه أمام متحفٍ فنيٍّ بديع، تزخر أروقته بالصور والتماثيل والتحف النفيسة، في مشهد يعكس المكانة الرفيعة التي حظي بها الفن والجمال في الحياة الثقافية الفرنسية.

بعد ذلك انتقل الصفار إلى **دار الفيزياء**، حيث وصف ما عاينه فيها من تجارب علمية في مجالات الكهرباء والضغط والموجات الصوتية، وما اطلع عليه من آلات تعتمد على العدسات لتكبير الأشياء، إلى جانب **آلة التلغراف الكهربائي**، التي تعرّف على طريقة عملها، وكيفية ربطها بين باريس وأورليان. ثم زار دار طبع الكتب **"الاسطنبا"**، وعدَّها من عجائب الصنائع، لما شاهده فيها من آلات وأدوات دقيقة تستخدم في طباعة الكتب المختلفة، فضلًا عما عاينه من مهارة النساخين في نسخ الكتب وتسفيرها. ومن أبرز معالم باريس التي استوقفت الرحالة معلم **"البانتيون"Le Panthéon** ، وهو بناء شامخ تعلوه قبة عظيمة، تتيح للناظر إطلالة بانورامية، توجد في داخله صور وتحف نادرة تعكس قيمته التاريخية والفنية، كما وصف القمرتين: **الكبيرة** و**الصغيرة**، يجتمع فيهما المسؤولون لتدبير شؤون الدولة، والنظر في قوانينها والتشاور في قضاياها، مما يكشف عن نظام سياسي يقوم على الاجتماع والتشاور وتقاسم المسؤوليات.

كما اهتم الصفار بالتعليم، فوصف إحدى المدارس، ونظامها وما تضمه من متعلمين ومدرسين ونظار، وما يدرَّس فيها من مواد الحساب والهندسة والفلسفة والفيزياء والكيمياء والطبيعيات والرياضيات وغيرها، وأشاد بانتظام سير الدراسة وانضباط الحياة المدرسية، كما وصف مدرسة أخرى مخصصة للأطفال الذين ينشغل آباؤهم بالعمل، حيث توفر لهم الرعاية والتعليم، وتقدم لهم دروسا تراعي مستوياتهم وأعمارهم، مؤكدا أن قوة الفرنسيين تقوم على العلم، وحسن التنظيم، وإتقان العمل، لتصبح رحلته سجلًا حيًّا للقاء حضاري، وشاهدا بارزا على مظاهر التقدم والتنظيم في المجتمع الفرنسي.

لخاتمة: في بيان مداخلهم

كشف الصفار في خاتمة رحلته عن جانب مهم من الحياة المالية والإدارية في فرنسا، متوقفا عند موارد الدولة وطرق تدبير شؤونها، وأشار إلى تنوع مداخيل الخزينة، وفي مقدمتها **خراج الأرض**، والضرائب المفروضة على الأبواب والنوافذ، والرسوم المتعلقة بشراء العقارات وامتلاك المراكب، وغيرها من الموارد. كما تطرق الكاتب إلى جانب من القوانين والأنظمة الإدارية المعمول بها في فرنسا، مبرزا دقة التنظيم الذي تقوم عليه الدولة وحرصها على توزيع الاختصاصات والمسؤوليات، حيث أشار إلى وجود تسعة وزراء، يتولى كل واحد منهم مجالًا محددًا وشأنًا خاصًا، وهم: **وزير الخزينة، ووزير الأمور الخارجية، ووزير الأمور الداخلية، ووزير محكمة الدين والشرع، ووزير المدارس، ووزير التجارة**

والزراعة، ووزير البناء والطرق والقناطر، ووزير الحرب، ووزير البحر، كما أبرز الرحالة طبيعة المهام المنوطة بهؤلاء الوزراء، موضحا اختصاصات كل واحد منهم، وما يتصل بوزارته من أعمال ونفقات، ليبين أن انتظام شؤون الدولة يقوم على دقة توزيع المسؤوليات وتحديد الاختصاصات، بحيث يُسند كل مرفق إلى من يتولى تدبيره والإشراف عليه، بما يضمن حسن سير الإدارة وانتظام شؤونها.

توقف الصفّار عند بعض القوانين المتعلقة بالعمل والتوظيف، وما تستلزمه أعمال الدولة ومرافقها من مصاريف ونفقات، فقدم للقارئ صورة عن جهاز إداري واسع، تحكمه القواعد وتضبطه القوانين، وتقوم شؤونه على قدر من الدقة والتنظيم. ومن خلال هذه المشاهد، يتضح أن الرحالة لم يكن معنيًّا بمظاهر الحضارة الفرنسية فحسب، بل سعى إلى النفاذ إلى بنيتها الداخلية، والكشف عن الأسس المالية والإدارية التي تستند إليها قوتها. ومن الأمور التي أثارت انتباه الرحالة ما لاحظه من وسائل مبتكرة في تحصيل **الأموال وتعزيز موارد الدولة**، حيث أوضح اعتماد أوراق مختومة بطابع السلطان، اكتسبت قيمةً ماليةً معتبرة، تُتداول بين الناس في معاملاتهم كالنقود. كما أشار الصفار إلى حضور النظام **البنكي في الحياة المالية الفرنسية**، وما كان يضطلع به من دور بارز في تنظيم المعاملات، وتيسير حركة الأموال، كاشفًا بذلك عن تعدد الوسائل التي اعتمدتها فرنسا في تدبير مواردها المالية لتعزيز المبادلات، بما يعكس ملامح نظام اقتصادي يقوم على التنظيم وحسن تدبير الشؤون المالية.

اختتم الصفّار رحلته بإثبات تاريخ الفراغ من تدوينها، محددا ذلك **في 11 رمضان 1262هـ**، الموافق لـ 2 شتنبر 1846م، ليسدل بذلك الستار على سجل حافل بالمشاهدات والتأملات، حفظ فيه صورة لفرنسا كما رآها بعين رحالة مغربي وقف أمام مجتمع مختلف في أنظمته ومؤسساته، فرصد أحواله، وتأمل مظاهر تقدمه، ونقل إلى القارئ ما استوقفه من مظاهر الحداثة الفرنسية، وهكذا غدت رحلته وثيقةً أدبية وحضارية، تروي قصة لقاء بين ثقافتين، وتكشف عن رغبة عميقة في المعرفة والفهم واستخلاص وجوه الاستفادة من تجارب الآخر.

أهمية رحلة الصفار:

حظي الرحالة محمد الصفار[2] بفضل مكانته العلمية، وتمكّنه من علوم اللغة العربية والشريعة، بثقة عامل السلطان على تطوان، فاختير كاتبًا ضمن بعثة دبلوماسية مغربية ترأسها السفير عبدالقادر أشعاش، موفدة من السلطان عبد الرحمن في مهمة رسمية إلى فرنسا، وقد حرص الصفار على تدوين مشاهداته وتوثيقها بدقة، وبعد عودته إلى المغرب سجّل تفاصيل رحلته، مسترجعا مراحلها منذ الانطلاق من تطوان إلى حين العودة إليها، ناقلًا ما عاينه من مظاهر الحضارة وأحوال المجتمع الغربي في صيغة تقرير مفصل رفعه إلى السلطان عبد الرحمن، فنال بذلك حظوة لديه، إذ قرّبه وجعله من وزرائه.

تندرج رحلة محمد الصفار التي قام بها إلى العاصمة الفرنسية باريس في دجنبر 1845م ضمن الرحلات ذات الطابع الدبلوماسي والثقافي، التي أسهمت في التعرف إلى مظاهر التواصل وطبيعة العلاقات التي ربطت المغرب بفرنسا منتصف القرن التاسع عشر، حيث لم تكن الرحلة

[2] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار لقبا، الأندلسي أصلا، ولد في العشرة الثانية من القرن الثالث عشر الهجري بتطوان، درس على شيوخها، ثم استكمل دراسته بجامع القرويين بفاس، أخذ علوم الفقه والحديث والنحو والأصول، وفي سنة 1836م عاد إلى تطوان، وصار يلقب بالفقيه. عمل عدلا، وكان يقدم الفتاوى في المسائل الدينية، ويدرس الحديث والفقه والعبادات بمساجد تطوان. أصبح مستشارا لعامل تطوان عبد القادر أشعاش في القضايا الشرعية، ورافقه في رحلته إلى فرنسا، وبعد عودته إلى تطوان استمر في مزاولة مهام العدلية، وإلقاء الدروس، فضلا فن قيامه بمهمة الكتابة في خدمة الباشا عبد القادر أشعاش. قدم تقريرا مفصلا لرحلته إلى حضرة السلطان مولاي عبد الرحمان الذي أسند إليه مهمة السهر على تربية أفراد الأسرة السلطانية وتعليمهم، ومن بينهم الأمير مولاي الحسن. تحول من مدرس إلى كاتب خاص للسلطان. حظي بمنصب الصدر الأعظم في أواخر حكم السلطان مولاي عبد الرحمان، وعند تولي السلطان محمد بن عبد الرحمان الحكم خلفا للسلطان المتوفى، عين محمد الصفار وزيرا للشكايات، ولي الصدارة نحو ثلاثين سنة، وظل بها خلال فترة حكم المولى الحسن. توفي محمد الصفار أواسط ذي القعدة عام 1298هـ الموافق لسنة 1881م بمنطقة دار ولد زيدوح التادلية، ودفن بمراكش. أنظر ترجمته: العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ج: 7، ص: 34-35، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م، ومحمد غريط، فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، ص: 70-71، ط:1، المطبعة الجديدة، فاس، 1346هـ، والأعلام، خير الدين الزركلي، ج: 6، ص:243، ط: 15، دار الملايين، بيروت، لبنان، 2002م.

مجرد انتقال جغرافي من مرسى مدينة طنجة إلى مرسيليا، ثم أورليان وصولا إلى العاصمة باريس، والاستقرار بإقامة بشارع الشانز إيليزي، بل شكلت محاولة واعية لإعادة اكتشاف الذات عبر مرآة الآخر الفرنسي، وفهم أسباب تفوقه ومكامن قوته من خلال موقعه السياسي وطبيعته الثقافية، خصوصا وأن باريس كانت آنذاك من أكبر العواصم الأوربية وأرقاها، وقبلة الزوار لمشاهدة صناعتها وفنونها، ونموذجا ثقافيا متفردا، وقد ركز محمد الصفار على رصد مظاهر النهضة الغربية في المجالات العلمية والصناعية، والتعليمية والعمرانية، وغيرها، بغية الاستفادة من التجارب الرائدة، واستلهام الأنسب منها، وتقويم جوانب القصور لتحقيق التقدم المنشود، وقد انطلقت هذه الرؤية من الحرص على صون الهوية المغربية والحفاظ على خصوصيتها، مع الانفتاح في الآن ذاته على العالم المتحضر ممثلًا في "فرنسا"، والاستفادة من منجزات نهضته العلمية، باعتبارها ركيزة لمواجهة التحديات، ودافعا للانخراط في مسيرة التحديث وبناء المستقبل.

كما تكمن أهمية رحلة الصفار في قدرة كاتبها على تسجيل تجربته في السفر إلى عالم مغاير عن عالمه، وتقديمها بأسلوب يعكس تفاعله الإنساني مع هذا العالم الجديد، حيث جعل القارئ يشاركه لحظات اتصاله بالعالم الآخر، وزوده بمعلومات إخبارية عنه، الشيء الذي يفيد في إعادة بناء تصور جديد للآخر والذات، بل الواقع عامة، وبذلك تمثل رحلة الصفار نقطة تحول في تصور العلاقة مع الآخر الذي لم يعد محصورا في حدوده، أو يمكن الانفصال عنه، بل صار من الضروري فتح قنوات للتواصل معه والانفتاح عليه.

مميزات رحلة الصفار:

يتأسس النص الرحلي للصفار على مقومات تفصح عن بنائه الجمالي والمعرفي الخصب، فتصبح الرحلة أكثر من مجرد سير في المكان؛ إنها رحلة نحو فهم الآخر واكتشافه، ولعل مكون الحكي الذي يرتكز على مؤشرات المشاهدة العينية، ينسج توازنا بين الواقع والتخييل، حيث يتخذ الرحالة موقع يتسم بالحياد والموضوعية تارة، ويتبنى موقفًا نقديًا إزاء بعض مظاهر الحياة في المجتمع الآخر تارة أخرى، ومن خلال هذا التوازن، يرصد الرحّالة سمات الآخر المغايرة لما ألفه في واقعه، كاشفًا عن عوالم جديدة، ووجوها مختلفة تضيء أمام القارئ أفقًا من الفهم والتأمل، ومعتمدًا في تشكيل تصوّره عن الآخر على مرجعيته الفكرية والثقافية، وما تختزنه من تصورات شعبية وثقافية متخيَّلة عنه، إلى جانب ما ينتقيه من الواقع من عناصر تسهم في رسم صورة محددة لهذا الآخر. ومن هنا المنطلق يتحول مكون الحكي إلى أداة رئيسة في نسج صورة حية لمشاهدات غير مألوفة، تتخللها صيغ متباينة تتأرجح بين الإعجاب والانبهار، والرفض والنقد، وفقا للأماكن والمواقع التي يزورها الرحالة، وما يصادفه من مشاهد مختلفة، وما يمثله منظور الرحلة لديه، الذي يتجسد عبر ثنائيات متناقضة: التقدم والتأخر، القوة والقصور، الانبهار والانتقاد. لتصبح الرحلة تجربة متكاملة توازن بين رصد الواقع والتأمل الذاتي، وتنقل للقارئ مشاهد غنية بالمعنى والجمال.

تقوم رحلة الصفار على ملاحظاته الشخصية المباشرة، التي تتشكل ضمن تجربة عاشها عن قرب، وسعى لنقلها بكل أمانة، مستندًا في ذلك إلى ما اكتسبه من معارف وخبرات خلال رحلته، وإلى ما أتاحه له احتكاكه بالآخر من فرصة للتعرّف إلى تجاربه وثقافته، مستفيدًا مما عاينه بنفسه وما تناهى إليه من أخبارٍ ومعارف، ليغدو سفره جسرًا يصل بين الثقافات، ومصدرًا ثريًّا لاكتشاف الآخر في تنوّع بيئاته وعاداته. وقد صرح الصفار في مقدمة رحلته بأن التعلم واكتساب المعرفة تحققا من مخالطاته للناس، وذلك بقوله: "وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر"، وغيرها من الإشارات التي تؤكد أن ما يقدمه للقارئ هو حصيلة ما شاهده وعاينه بنفسه، أو سمعه عن الآخر، وهو ما يجعل رحلته من أهم الرحلات المغربية في العصر الحديث التي سجلت مظاهر المدنية الفرنسية، وكشفت عن موقف الصفار المتوازن إزاء الصدمة الحضارية الناتجة عن احتكاك بيئتين حضاريتين مختلفتين، تمثّل الأولى المغرب بما يختزنه من تاريخ وقيم وتقاليد وتراث، وتمثّل الثانية فرنسا بما بلغته من تطور حضاري وما اتسمت به من قيم وأنماط حداثية، مع تسجيل حرص الصفار على التمسك بقيم الشرق، وفي الوقت نفسه انفتاحه على تجربة الغرب وسعيه إلى التعرف على مقومات تقدمه، مما أضفى على رحلته قيمة معرفية وإنسانية فريدة.

حرص الرحّالة الصفار على تقديم صورةً واضحةً وشاملةً عن المجتمع الفرنسي، من خلال رصد مختلف مظاهر الحياة فيه، ولا سيما أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ليقدّم للقارئ مشهدًا نابضًا بتفاصيل الواقع، ويتيح له الوقوف على تفاصيل الأماكن التي زارها، ورصد خصائصها. ونسجل في رحلة الصفار مجموعة من النقط نذكر من أهمها:

أولًا: حرص الصفار على الدقة في الوصف؛ إذ لم يكتفِ بالإشارات العامة، بل كان يصف التفاصيل الصغيرة لكل ما يراه، من المباني والقناطر، مرورًا بدور السينما والمسرح، وطبيعة البيئة المعيشة، وصولا إلى قاعات الطعام وعدد الشموع فيها، وغيرها من التفاصيل التي عكست اهتمامه الدقيق بكل ما يحيط به.

ثانيًا: لم يركّز الصفار على المظاهر العمرانية الفرنسية فحسب، بل أولى اهتماما كبيرا بوصف الإنسان، فتناول لباس الفرنسيين، وسلوكهم، وعاداتهم، وطبيعة مساكنهم، ليرسم لوحة متكاملة عن الحياة الاجتماعية في فرنسا، ولاسيما في قلبها النابض باريس.

ثالثًا: استخدم الصفّار أسلوبًا وصفيًا دقيقًا قائمًا على الملاحظة المباشرة، غير أنّه لم يكن، في بعض الأحيان، قادرًا على استيعاب بعض الظواهر استيعابًا كاملًا، ولا سيما التجارب العلمية التي بدت له غامضة، فكان يجتهد في تفسيرها، وتقريبها للقارئ بأسلوب أدبي راق يعكس مدى تمكنه من ضوابط اللغة العربية.

رابعا: انفتح الصفّار، في سياق رحلته، على جملة من النصوص والمرجعيات، مستحضرا ما يتصل بأدب السفر وأخلاقياته، واصفًا مسالك الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، وموظفا بعض النصوص الدينية المقتبسة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فضلا عن تضمينه لبعض الأقوال المأثورة والأمثال والنوادر، والأشعار، مما أضفى على تجربته الرحلية بعدًا روحيًا ومعرفيًا ساهم في إثراء السرد وتعميق دلالاته.

خامسا: يكشف النص الرحلي عن إعجاب الصفّار بالحضارة الباريسية، حيث وصل هذا الإعجاب أحيانًا إلى حدّ الانبهار، من خلال مقارنته بين ما شاهده من مظاهر التقدم في فرنسا، وما كان يواجه المغرب من تحديات في تلك الفترة.

الوعي الحضاري بين الإعجاب بالآخر والاعتزاز بالهوية:

تمثل رحلة الصفّار تجربة معرفية وحضارية، اعتمد فيها صاحبها على الملاحظة الدقيقة والمقارنة، بهدف استكشاف مظاهر التقدم في العاصمة باريس، والسعي إلى نقلها للاستفادة منها، فالقضايا التي رصدها الصفّار في رحلته، لم تكن مجردَ وصفٍ عابر، بل جاءت مشبعةً بنبرة إعجاب بلغَت أحيانًا حدَّ الانبهار، فوقف متأملا فيما آلت إليه المدنية في باريس، وما بلغه الإنسانُ الفرنسي من رقي وتنظيم، وقارن ذلك بحال بلاده التي كانت لا تزال تستدعي جهدًا دؤوبًا وعملًا متواصلًا لبلوغ التقدّم المنشود، ومن خلال هذه المقارنة، سعى الرحالة إلى استكشاف الأبعاد المعرفية والحضارية، طامحًا إلى بناء صورة واضحة ومتكاملة عن الآخر، تجمع بين الفهم والتأمل والنقد. وهكذا يمكن القول إن الهدف من هذا الوصف لم يكن مجرد السرد، بل كان محاولة لفهم الآخر والاستفادة من تجاربه، عبر استحضار فكرة الإصلاح والرغبة في تحقيق التقدم المنشود.

منذ اللحظة الأولى، أدرك الرحّالة الصفّار جسامة التجربة التي يخوضها برفقة وفد السفارة المتجه إلى فرنسا، موقنا أنه لا يُقبل على رحلة عادية، بل على اختبارٍ معرفيّ وحضاري فريد. لذلك اختار لنفسه أسلوبًا خاصا في السرد، رصد من خلاله مختلف مراحل الرحلة، منذ انطلاقها إلى حين انتهائها، وسجل ملاحظاته وانطباعاته بدقة. ولم يعد الانتقال من مكان إلى آخر، باعتباره الحافز التقليدي في أدب الرحلات، مجرد إطار للحكي، بل غدا في رحلة الصفار تجربة واعية، انبنت على إدراك عميق بأن صاحبها مقبل على توثيق واقع مغاير لما ألفه، يختلف في الزمان والمكان، وفي مظاهر الحضارة والثقافة. ومن هذا المنطلق، بدأت تتشكّل صورة الآخر الفرنسي لديه، لا بوصفها انطباعًا عابرًا، بل باعتبارها ثمرة وعيٍ سابق ومعرفة متراكمة، تؤطّرها منظومة من القيم الإنسانية والمعرفية، وعبر استرجاعه لتفاصيل الرحلة، كما اختزنتها ذاكرته المشبعة بخلفيته الثقافية والدينية، ينكشف هذا الآخر في ضوء رؤية مقارنة، تضعه في ميزان الذات الحضارية، وتمنح السرد بُعدًا تأمليًا يتجاوز الوصف إلى الفهم والتحليل.

يكشف وعي الصفار بطبيعة رحلته عن إدراك عميقٍ للعلاقة القائمة بين الذات الحضارية والآخر، وعن علاقة لم تكن منفصلة عن السياق السياسي الذي كان يشهده المغرب، ولا عن طبيعة المهمة الرسمية التي انتدبت من أجلها السفارة، غير أنّ هذا الوعي لم يدفع الصفّار إلى الاكتفاء بتقديم عرض وصفي لمجريات المهمة، بل تجاوزه إلى استحضار ذاته في ثنايا السرد، فجاءت كتابته نابضةً بحضوره، مشبعة بانتقائه

الخاص لما رآه وعاشه، حيث التقط الكاتب من المشاهدات والوقائع ما أثار انتباهه، وصاغ منها مواقف واضحة، وأقام عليها أحكامه وتقييماته، في مسعى يعكس عمق مرجعيته الدينية والثقافية التي وجّهت نظره وأطّرت فهمه. وهكذا، لم تكن رحلته مجرد سرد للأحداث، بل غدت فعلَ تأمّلٍ وتفسير، برزت فيه الذات في حوارٍ مع الآخر، تعيد من خلاله تشكيل رؤيتها للعالم وفق منظورها الخاص.

انبهر الصفّار بما شاهده من مظاهر التقدّم العلمي في الغرب في صورة فرنسا، حيث استوقفته مظاهر القوّة التي أفرزها الرقي الحضاري، فراح يتأمّلها ويقارنها بوضع مجتمعه في تلك المرحلة. وقد أرجع التقدم الفرنسي إلى ما لمسه من حسن التنظيم ودقّة الترتيب، ووضع الأمور في مواضعها، فضلًا عن اعتماد الفرنسيين على الإعداد المحكم، والتخطيط الواعي باعتباره الأساس لكل تقدّم. ولم يفته أن يصفهم بذكاء العقل، وحدّة الذهن، ودقّة النظر، فهم في نظره لا يركنون إلى التقليد في تحصيل المعرفة، بل يسعون إلى تتبع أصول الأشياء، والكشف عن ماهيتها، مع الانفتاح على التجديد، كما ربط الصفّار بين عناية الفرنسيين بالعلم وشغفهم بالتعلّم، فاعتبر ذلك عاملا أساسيًا من عوامل نهضتهم وتقدّمهم. وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه المقارنات من إعجابٍ واضحٍ بالآخر، فإن الكاتب ظل يؤكد على المكانة الفاعلة للحضارة الإسلامية وإسهامها في بناء التراث الإنساني، ويتجلّى هذا الوعي في استحضاره للمقارنة بين باريس والقسطنطينية، حيث يبرز اعتزازه بانتمائه الحضاري، في محاولة لإقامة توازنٍ واعٍ بين عالمين مختلفين.

أولى الصفّار عنايةً فائقةً للخبر المروي تمحيصًا وتوثيقًا، وانعكس ذلك جليًّا في أسلوبه السردي؛ حيث حرص على بناء خطابه، وتدوين تقريره على الصدق والواقعية والدقة، فميّز، بوعيٍ منهجي واضح، بين ما شاهدته عيناه، فدوّنه في صيغة اليقين الموثوق، وبين ما سمعه أو نقل إليه عبر الآخرين، فوسمه بعبارات من قبيل: «يقولون إن» و«يزعمون أن»، في إشارةٍ صريحة إلى أنّ الخبر منقولٌ غير معايَن، وأنه صادرٌ عن وسيط لا عن تجربةٍ مباشرة، غير أنّ هذا الاحتراز لم يكن مجرّد إجراءٍ توثيقي، بل كان ينطوي على موقف فكريٍّ مضمر، حيث يتخذ الصفار نظرة نقديةً تجاه بعض مظاهر المدنية التي ينقلها في كتابه، ولا يكتفي بأن يكون ناقلا محايدًا، بل يتجاوز ذلك إلى أن يكون قارئًا فاحصًا ومفسّرًا واعيًا؛ يعرض الخبر، ويشير إلى مصدره، ثم يُخضعه لميزان النظر، نقدًا وتقويمًا، مقترحًا ما يراه أصلح وأقوم. وهكذا تشكل رحلته فضاءً حيًّا للتفاعل بين الذات والآخر، حيث يتداخل الانبهار بالرؤية النقدية، ويتكامل الوصف مع التحليل في بناء سرديٍّ متناسق.

أثر الرحلة في تعزيز المثاقفة:

كان الصفّار واعيًا، منذ بداية رحلته، أنّه يُقبل على عالمٍ مغاير، يتباين عنه دينيًا وعرقيًا وثقافيًا؛ عالمٌ تتجلّى فيه معالم الاختلاف في كل ما تقع عليه العين، من عمرانٍ ومؤسسات، إلى عادات وتقاليد، وصولا إلى مظاهر العلم والثقافة. ولم يكن هذا الوعي باعثًا على الانطواء أو النفور، بل غذّى لديه إحساسًا عميقًا بضرورة الإفادة من هذا الاختلاف واستثماره، حيث جعل من الاحتكاك بالآخر سبيلا إلى تحصيل المعرفة، ومن التفاعل معه أفقًا رحبًا لاكتساب الخبرة، وتوسيع المدارك. وهكذا، لم يعد الاختلاف في نظره حاجزًا يُقصي، بل جسرًا يُفضي إلى تلاقحٍ ثقافيٍّ ومعرفيّ، تتكامل فيه التجارب وتتجدّد عبره الرؤى.

دعا الصفّار، بوعيٍ متبصّر، إلى الإيمان بوحدة الإنسان في أفق العلم والمعرفة، مؤكدًا أنّ ما تنتجه الحضارات من منجزات إنما هو ميراثٌ إنساني مشترك، وقد وضح ذلك من خلال وصفه الدقيق لمظاهر الحياة الثقافية الفرنسية، بدءا من العناية البالغة بالصحافة وصناعة الخبر، وصولا إلى الاحتفاء بالفنون وتعدد المؤسسات العلمية، حيث اتخذ من هذه المظاهر مؤشرًا إبيستمولوجيًّا على حيوية مجتمعٍ يقوم على استثمار المعرفة وترسيخ قيمتها. ولم يكن هذا الإعجاب دعوةً إلى الانصهار في ثقافة الآخر، بل كان إقرارًا بحقيقة التفاعل الحضاري مع الآخر؛ إذ آمن الصفّار بأنّ الحضارات تتغذّى من بعضها البعض، وأنّ من حق الإنسانية أن تتقاسم ثمار التقدّم، مع إدراك راسخ يميّز بين ما هو مشترك إنساني، وما تنفرد به كل ثقافة من محدّداتٍ هُوِيَّاتِية وخصوصيات حضارية، تُسهم في حماية كينونتها وترسيخ استقلالها المعرفي والجوهري. ويتعمّق هذا التصوّر في سعي الرحالة إلى إبراز القواسم المشتركة بين البشر، حيث يستحضر مظاهر إنسانية مشتركة، كالمعرفة والإبداع والجمال، والتطلّع إلى الارتقاء في المستويين المادي والمعنوي، وغيرها من التجارب والقيم الإنسانية التي تتقاطع فيها مصائر البشر، مهما تباينت بيئاتهم واختلفت ظروفهم. ومن خلال ذلك، يجعل الصفّار من هذا المشترك الإنساني أرضيةً للحوار والتفاعل والتشارك بين الأمم، وسبيلا إلى بناء

حضارة إنسانيةٍ تتأسّس على التلاقي لا التنافر، وعلى التكامل لا الإقصاء. وهكذا تظهر رغبةُ الصفّار في نسج علاقة إنسانيةٍ قوامها تبادل الخبرات وإثراء المعارف، بعيدًا عن منطق الانغلاق أو الإلغاء؛ إذ يسعى إلى تأكيد إمكانية مدّ جسور التفاعل بين الأمم والثقافات، على الرغم مما بينها من تباينٍ واختلاف.

ومن هذا المنطلق، يقر الرحالة الصفار بتفوّق الفرنسيين في مجالات متعددة، ويعبر عن إعجابه بما عاينه من مظاهر الحياة الباريسية، كالمسرح، على سبيل المثال لا الحصر، كما يدعو ضمنيا إلى الإفادة من تجربة الآخر، والسعي إلى امتلاك مقومات التقدّم المادي من خلال الأخذ بأسباب تفوقه، والاستفادة من خبراته وتعزيز جسور التواصل والتعاون معه، ما دامت هذه الإفادة لا تمسّ بالثوابت ولا تُخلّ بمرتكزات الهوية، فالإفادة من النموذج الغربي لم تكن تعني، في تصوّر الكاتب، التخلي عن الذات الحضارية أو التنكّر لها، بل كانت تقتضي التمسّك بها، واستحضار أبعادها الرمزية والثقافية، والاعتزاز بمقوماتها، والحرص على صيانتها. ومن ثمّ، يتجلى في خطابه مساران متكاملان: الانفتاح على الآخر من جهة، والتشبث بالذات من جهة أخرى، في محاولة واعية لإرساء توازن دقيق بين التفاعل مع الغير والمحافظة على الخصوصية الثقافية، وصون الرصيد الروحي والقيمي الذي يميز مجتمعه.

حرص الصفّار على تقديم صورة دقيقة ومفصلة عن العالم الذي اكتشفه، فوثّق مشاهداته للأماكن والمؤسسات والأشخاص والعادات السائدة في المجتمع الفرنسي، وسجّل مختلف مظاهر التمدّن التي لفتت انتباهه. وقد خصّ مدينة باريس بوصف شامل تناول عمرانها ومرافقها العامة ونظافتها، إلى جانب النظم والقوانين التي تؤطر الحياة اليومية فيها، معبرا عن إعجاب واضح بما عاينه من مظاهر التقدّم والتنظيم، فيما بدا وكأنه دعوة ضمنية إلى الاستفادة من مقومات المدنية الحديثة. وقد نظر الصفّار إلى فرنسا بعين الملاحظ المتطلع إلى فهم الواقع من خلال المعاينة المباشرة والتجربة الميدانية، فجاءت رحلته حافلة بانطباعات حية عكست ما تركته زيارته لفرنسا من أثر في نفسه، ونقلها إلى القارئ بقدر كبير من الصدق والوضوح. غير أنّ حرصه على تصوير الواقع كما شاهده لم يمنع من وجود حدود موضوعية لتجربته؛ إذ ظلّ اطلاعه على المجتمع الفرنسي جزئيًا ومحصورًا في نطاق الفضاءات الرسمية التي أتاحت له الرحلة السفارية الولوج إليها. ومن ثمّ، اتسمت ملاحظاته بالدقة والإعجاب، لكنها لم تستوعب كل تفاصيل الحياة الفرنسية وأبعادها.

خاتمة:

تحوّل أدب الرحلات في العصر الحديث إلى جنس أدبي قائم بذاته، متجاوزًا وظيفته التقليدية التي كانت تقتصر على التوثيق التاريخي والجغرافي، لتصبح كل رحلة تمتلك بنية فنية خاصة تميّزها، تتجلّى في معمارها السردي العام، الذي ينتظم وفق تدرج متسلسل يبدأ بالمقدمة، ويمر عبر الفصول، وصولًا إلى الخاتمة، بما يكشف عن تماسكٍ وانسجامٍ في بنية الرحلة، ويمنحها وحدةً وتكاملًا، إلى جانب ما تتسم به من خصائص أسلوبية وفكرية تميّزها عن غيرها من النصوص الرحلية. ومن هذا المنظور، لم يعد الأدب الرحلي مجرد تسجيل للوقائع والمشاهدات، بل غدا تجربة إبداعية متكاملة تقوم على أسس جمالية وفنية، وتعبّر عن رؤية صاحبها للعالم من خلال حضور الذات وتأملاتها وانفعالاتها. وبذلك أصبح هذا الفن يتميز بطابعه الخاص الذي يجمع بين البعدين التوثيقي والتخييلي، ليشكّل فضاءً تتداخل فيه الحقيقة بالتجربة الذاتية، والواقع بالتصور الإبداعي، وهكذا نهضت رحلة الصفار على نقل تجربة صاحبها وتفاعله مع الأمكنة والثقافات التي اكتشفها خارج بيئته الأصلية، فلم يقتصر على وصف المشاهد والأحداث، ورصد ملامح المدن والأماكن التي زارها، وتتبع أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية، وعادات سكانها وتقاليدهم، وتسجيل الأحداث والمواقف التي عايشها، بل تجاوز ذلك إلى التعبير عن الانطباعات والمشاعر والتأملات التي تنبثق من تجربة مواجهة الآخر واكتشاف عوالم جديدة. ويأتي هذا كله في قالب أدبي يجمع بين المتعة والمعرفة، ويشدّ القارئ إلى متابعة الرحلة خطوةً بخطوة، كأنه يرافق الرحّالة في تنقلاته واكتشافاته. وهكذا يصبح النص الرحلي فضاءً تتداخل فيه الملاحظة الواقعية مع الرؤية الذاتية، وتمتزج فيه المعرفة بالمتعة السردية، بما يتيح للقارئ معايشة تجربة العالم الآخر من منظور الكاتب وإحساسه الخاص.

لا يمكن النظر إلى الآخر بوصفه كيانًا ثابتًا أو حقيقة مكتملة ونهائية، لأن وجوده يظل رهين التحولات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي تعيد تشكيل ملامحه باستمرار. فالآخر ليس جوهرًا جامدًا يستقر على صورة واحدة، بل هو واقع متغير يخضع لمنطق

الصيرورة والتبدل، تتباين سماته تبعًا لتعاقب الأزمنة واختلاف السياقات الحضارية. ومن هذا المنطلق، لا تكفي العودة إلى التصورات الموروثة أو الأحكام المسبقة لفهم الواقع وتقييمه، فالتاريخ يكشف أن الشعوب والحضارات كثيرًا ما نسجت صورًا متخيلة عن بعضها البعض، اتسمت بالتعميم والانتقائية، وبالمبالغة أو التحفّظ، الأمر الذي يبرز أهمية التواصل المباشر والاحتكاك الفعلي بالآخر، باعتبارهما السبيل الأمثل إلى بناء معرفة أكثر موضوعية وعمقًا، قادرة على مراجعة التمثلات الجاهزة وتصحيح الصور النمطية المتوارثة. وفي هذا الإطار تكتسب الرحلة قيمتها المعرفية والثقافية، إذ تتيح للرحّالة معاينة الآخر من داخل واقعه، بعيدًا عن الوسائط غير المباشر وما قد تحمله من أحكام مسبقة.

هكذا، يصبح أدب الرحلة أكثر من مجرد وثيقة تاريخية أو جغرافية تُعنى بتسجيل الوقائع والأمكنة؛ فهو خطاب أدبي مستقل يمتلك آلياته الفنية ورؤيته الخاصة للعالم. ومن خلاله تتجسد تجربة اللقاء بالآخر في صورة سردية تجمع بين الوصف والتأمل والتحليل، وتزاوج بين المعرفة الموضوعية والانطباع الذاتي، بما يجعل النص الرحلي فضاءً خصبًا لفهم الثقافات واستكشاف تمثلاتها سواء في الوعي الفردي أو الجماعي، ويندرج بذلك ضمن ديناميكية الانفتاح على الآخر وتعزيز الحوار الحضاري.

المراجع والمصادر:

- الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية للشيخ محمد بن عبد الله الصفار، دراسة وتحقيق د. سعاد الناصر، مطبعة الحداد يوسف اخوان الهداية تطوان، 1995م
- أدب الرحلات، د.حسين محمد فهيم، سلسلة عالم المعرفة، عدد:138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1989م.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم المراكشي، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ج: 7، ص: 34-35، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م،
- فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، محمد غريط، ص: 70-71، الطبعة الأولى، المطبعة الجديدة، فاس، 1346هـ
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ج: 6، ص:243، ط: 15، دار الملايين، بيروت، لبنان، 2002م.